العقـــاد

بقلم جبار النقاش

مات عباس محمود العقاد يوم الاربعاء ١١ مارس سنة ١٩٦٤ .وقد مات المفكر الكبير وعمره خمسة وسبعون عاما قضى منها اكثر من خمسين سنة وهو يحمل القلم ، ويمارس مهنة الفكر . وقد ترك العقاد وراءه ما يقرب من ثمانين كتابا في مختلف فروع الفكر والمعرفة والادب .

ونحن اذا كنا قد هاجمنا العقاد اكثر من مرة في هذا المكان ، فليس معنى ذلك اننا ننكر عليه قيمته ودوره اللامع في تاريخ الفكر العربي، وانما كنا ننكر عليه دائما عناده المر في مواقفه الفكرية ، فقد كان قاسيا صارما في احكامه ، لا يسمح لاحد ان يختلف معه او يقف في وجه رأي من ارائه .

ولكن هذا كله لا ينفي ان العقاد كان ركنا ضخما من اركان الثقافة العربية . لقد بدأ العقاد الكتابة سنة ١٩١٠ تقريبا ، وكانت الثقافة العربية حبيسة الكتب الصفراء ، وكانت هذه الثقافة بعيدة كل البعد عن ثقافة الغرب المعاصر ، واستطاع العقاد ان يقوم بدور مذهل في ربط الثقافة العربية بالثقافة الغربية ، فادخل المناهج العلمية الحديثة الينا، واستطاع بذلك ان يغير الموقف الفكري عند العرب ... استطاع ان يناقش قضايا التاريخ الاسلامي بعقلية رجل متحضر معاصر ، وبذلك اصبح حديثه مقبولا مقروءا مؤثرا على العقول ، كل ذلك بعد ان كان الذين ينظرون الى التاريخ الاسلامي اما مجموعة من الذين يقدسونه، ويقبلونه كما جاء اليهم بلا تمحيص ولا بحث عن البرهان واليقين ، وهؤلاء كانوا بدون شك مجموعة من الجامدين الذين يساهمون في تعطيل العقل العربي والوقوف به عند حدود قديمة عتيقة ... هذه المجموعة الاولى كان يقف الى جانبها مجموعة اخرى هي المجموعة التي ترفض التاريخ الاسلامي وتعتبره نوعا من الجاهلية الحضارية التي يجب ان ننكرها ونتخلص منها اذا اردنا ان نعيش في القرن العشرين .

واستطاع العقاد ان يتخلص من جمود العقلية القديمة ، واستطاع في نفس الوقت ان يتخلص من الانكار المطلق عند اصحاب العقلية العصرية المتطرفة ، هؤلاء الذين ارادوا ان ننقطع عن الماضي تماما وننصرف عنه .

وبذلك اعاد العقاد ـ ومعه بعض ابناء جيله اللامعين امثال طه حسين ـ نوعا من الاتصال بيننا وبين الماضي ، وهو نوع جديد ذكي اصيل ، فهو اتصال يساعد على الاستمرار ، واتصال يساعد على التقدم في ميدان الحضارة .

ان كتاب العقاد عن « محمد » مثلا ، يساعدنا على ان نفهم عبقرية النبي ، ولكنه الى جانب ذلك يفتح امامنا افاقا جديدة لكي نعرف كثيرا من العلماء الغربيين ، ذلك لانه استخدم احدث المناهج المعروفة في تحليل الشخصية الانسانية ، في دراسته للعبقرية المحمدية . ولقد لاحظت في الفترة التي قضيتها في فرنسا ان المثقفين في الريف الذين يقرأون العقاد هم الذين كانوا يدفعون باولادهم الى التعليم المدني المعروف ، بينما كان الذين يقرأون مصطفى صادق الرافعي وامثاله هم الذين يفرضون على ابنائهم تعليما كلاسيكيا دينيا شديد التعقيد يؤدي بهم في النهاية الى الابتعاد عن روح العصر ، وعن حضارة القرن العشرين .

اي ان العقاد اقنع القارىء العربي بالحضارة العصرية ، من خلال الثقافة العربية نفسها ، وهذا في الواقع مجهود كبير ضخم لم يكن يقوى عليه الا عقل في اتساع عقل العقاد وعمقه .

على ان العقاد لم يكتف بميدان التاريخ الاسلامي . فدخل ميدان الادب القديم ، وكان له في الادب القديم نظرات لامعة ذكية ، استخدم فيها المناهج العصرية ايضا بعد ان عرفها وهضمها واصبح قادرا على استخدامها قدرة رائعة عميقة . فكتابه عن « ابي نواس » يقوم على اساس من التحليل النفسي ، انه يستخدم فكرة « النرجسية » المعروفة في علم النفس . وكتابه عن ابن الرومي يعتبر من اثمن الكتب النقدية التي عرفتها المكتبة العربية ، لقد سجل فيه العقاد قدرة عالية في فهم شخصية الفنان من شعره ، واستطاع في هذا الكتاب الممتاز ان يعيد الحياة الى شاعر قديم ، بحيث نستطيع بعد قراءتنا لكتاب العقاد ان نعاشر ابن الرومي ونحس به وكأنه كائن حي يعيش في عصرنا وينفعل بتجاربنا المختلفة . لقد نفض العقاد عنه غبار الماضي . وخلق منه كائنا نابضا بالحياة ، بعد ان كان شاعرا مغمورا في صفحات الادب القديم، فابن الرومي من اسوأ الشعراء حظا ، حيث لم يحظ باهتمام كبير في الماضي ، حتى جاء العقاد واعاده الى الحياة .

اذن فقد ساهم العقاد مساهمة واعية كبيرة في احياء الفكر الكلاسيكي العربي (في الادب والدين والحضارة) ، والبس هذا الفكر ثيابا عصرية مقبولة ومؤثرة . واذا كنا ننادي اليوم بالقومية العربية ، ونعلم تمام العلم ان اساسا هاما من اسس القومية العربية يتمثل في اللغة والتراث الفكري المشترك ، فيجب ان نعترف ان العقاد قد ساهم مساهمة جبارة في احياء التراث القديم ونفض الغبار عنه ، وساهم مساهمة جبارة في جعل اللغة العربية لغة عصرية ، وفي جعل الثقافة العربية ثقافة عصرية ... ولولا العقاد وبعض ابناء جيله لما تجدد شباب اللغة العربية ، ولما تجدد شباب الثقافة العربية ، ولعشنا حتى الان في ظلام شيخوخة الفكر العربي واللغة العربية ، كما كان الامر في القرن التاسع عشر .

من هنا نستطيع ان نقول ان العقاد وان لم يدع الى القومية العربية دعوة مباشرة قد ساهم مساهمة قوية في تحقيق الدعوة القومية ، عن طريق كتبه وجهوده الفكرية ، وذلك عندما ساهم اكبر المساهمة في اقامة اساس متقدم صلب للفكر العربي واللغة العربية .

واذا التفتنا الى دور العقاد في النقد الادبي وجدناه دورا هاما لامعا ايضا ، وخاصة في نقد الشعر ، فقد بدأ العقاد حياته الادبية والشعر في مرحلة جمود وركود ، لقد كانت « القيم الكلاسيكية » مسيطرة تمام السيطرة على الشعر في ذلك الوقت ، وكان الشاعر في الاغلب هو شاعر المناسبات ، فالقصيدة تكتب في الرثاء والتهنئة ، وتكتب في الاعياد الوطنية والاعياد الدينية وهكذا ... وجاء العقاد فنادى بدعوة واضحة محددة هي العودة الى النفس الانسانية ، فالتجربة النفسية

وحدها هي التي تخلق الشعر الاصيل ، والتجربة النفسية وحدها هي التي تجعل للشاعر شخصية مستقلة نحس بها من خلال شعره .وكانت دعوة العقاد قوية اصيلة ، وبدأت هذه الدعوة نفسها في معركة كبيرة بينه وبين اميرالشعراء في ذلك الوقت : احمد شوقي . وكان لهذه المعركة دوي كبير ... وانتهت المعركة بفتح الطريق امام ادب جديد يختلف في قيمه واساليبه عن الادب الكلاسيكي .

ولقد كان العقاد بالاضافة الى ذلك كله صاحب ثقافة موسوعية ، فقد الم بكثير من العلوم والمعارف ، واصبحت كتبه جامعة كبيرة لابناء الشعب . لقد كتب في الادب وكتب في التاريخ وكتب في الفلسفة ، وكتب في الاديان ، وكتابته في كل هذه الفروع كتابة عميقة ذكية ، تمتاز بالشمول والثقافة الواسعة .

- وكان للعقاد موقف في السياسة ، فقد كان وطنيا مخلصا ... بمعنى انه فهم القضية الوطنية ، اي تخليص الوطن من الاستعمار الاجنبي ولكنه لم يستطع ان يفهم بصورة واضحة القضية الاجتماعية ... اي تخليص المجتمع من الاستغلال والسيطرة الاقتصادية من جانب فئات قليلة محدودة . ولذلك كان العقاد ابنا بارا من ابناء ثورة ١٩١٩ في مصر . فقد كانت هذه الثورة تهدف بالدرجة الاولى الى تحرير الوطن قبل تحرير المواطن من الاستغلال الاقتصادي بالذات .

وفي معظم كتب العقاد لا نجد اثرا كبيرا للقضية الاجتماعية ... مثل ذلك الاثر الذي نجده عند سلامة موسى او عند طه حسين . ولذلك اختلف العقاد مع كل المفكرين اليساريين اختلافا عنيفا . فقد اختلف مع الشيوعيين ، ومما جعل هذا الاختلاف مريرا ان الشيوعيين العرب كان موقفهم منذ البداية استفزازيا من العقاد ، ولم يحاولوا ان يدخلوا معه في حوار هادىء معقول ، واتهموه بالخيانة وما الى ذلك من اوصاف حادة ، بل لقد بلغ الامر ان وصلته تهديدات حقيقية بالقتل من بعض الشيوعيين . ولم يستطع الشيوعيون ابدا ان يضعوا العقاد في ميزان موضوعي هادىء وعلمي . بل كانوا متحيزين ضده . مما اثار ما في طبعه من عنف ومرارة ، واصبح حانقا على اليسار العربي بجميع فروعه، حتى اليسار الوطني المعتدل ، الذي يمثله معظم الجيل الجديد من الكتاب في مصر .

والان وقد مات العقاد ، واصبح حقيقة من حقائق التاريخ العربي، يجب ان نقول انه كان مفكرا عظيما لامعا شديد الخصوبة والغزارة ... وان فكره الغزير الخصب كان مليئا بما يستحق البقاء والحياة ،وكان يحتوي على جانب اخر خاطىء ... ولكن اخطاء العقاد لا يمكن ان تبتلع في اخر الامر ميزاته الحقيقية العظيمة . لا يمكن ان تقف في وجه اثاره الكبيرة في ميدان الفكر العربي . انها اخطاء طبيعية نتجت من ظروف تكوينه النفسي المليء بالعناد والثقة بالنفس ، ونتجت ايضا من طبيعة المرحلة الطويلة المليئة بالمتفجرات الفكرية والاجتماعية والتي عاشها بكل تفاصيلها وتأثر بها ... لقد ظل العقاد يكتب اكثر من خمسين سنة متصلة . اهتز فيها المجتمع العربي هزات كبيرة عنيفة ، واهتز فيها العالم نفسه هزات كبيرة عنيفة ، لقد كتب على مصباح الغاز، وكتب في ضوء الكهرباء . وكتب ومصر ليس فيها سيارة واحدة وعاش حتى رأى عصر الصواريخ . وكتب وكان مصر يحكمها « كرومر » ومات ومصر يحكمها احد ابنائها ... فلاح عربي هو عبد الناصر ، نبع من الامها وامالها ، وقادها الى الطريق الصحيح .

كل هذه التقلبات الكثيرة العنيفة كفيلة بان توقع اي عبقري في اخطاء واضطرابات فكرية ... ولكن مثل هذه الاخطاء والاضطرابات لن تكون ابدا قادرة على اطفاء الجوانب المضيئة من عبقرية العقاد ... حتى بالنسبة لنا ـ نحن الذين كان من حظنا او من سوء حظنا ان نختلف معه بعنف اكثر من مرة .

القاهرة — رجاء النقاش

صدر حديثا في

سلسلة القصص العالمية

الحلقة الاولى

قصص سارتر

في كتاب واحد يضم : الجدار ، الغرفة ، ايروستورات ـ صميمية ـ صداقة عجيبة

تقديم وترجمة

الدكتور سهيل ادريس

الثمن ٣٥٠ ق.ل

والحلقة الثانية

قصص كامو

في كتاب واحد يضم : الغريب ـ الزوجة الخائنة ـ الجاحد ـ اليكم ـ الضيف ـ جوناس ـ الحجر الذي ينبت

ترجمة

عايدة مطرجي ادريس

الثمن ٤ ليرات لبنانية

منشورات دار الآداب